هابيل*

محمد جميل شلش

مِنْ أيِّما صدرٍ..؟ وفي أيِّ جيلْ
أَنْفُثُ هذا الشَّجَنَ الوارِي..؟
مِنْ أيِّ قبر في كهوف الجليلْ..؟
أصرخ بالأجيال: واثاري...؟
مِنْ أيِّ منفى في ليالي الرحيلْ...؟
أكتبُ للآتينَ أخباري؟
لا تسألوني... إنَّهُ المستحيلْ
أَنْ تعزِلوا عن عارِكمْ عاري.
خمسينَ عاماً بُحَّ صوتي النَّبيلْ
ولمْ يُغثني أيُّ دَيّارِ.
ولم أقُلْ: «هذا دَمي»... فالدَّليلْ
يصرخ في إرثي وأسْفاري.
هذا أنا: الحيُّ.. السَّبيُّ.. القتيلْ
وتلكَ مأساتي وآثاري.

* * *

يا إخوتي في الشّجونْ
يا إخوتي في وَصْمةِ العارِ
لا تسألوني مَنْ أنا.. فالجوابْ
يَعْيا بهِ الموتى
ويستحيلُ الترابْ
في صمتهِ غضبةَ إعصارِ.

* * *

يا إخوتي في المُنونْ
يا إخوتي في محنة الدارِ
لا تسألوني، أيها النائمونْ
في كَهْفِكمْ، منْ قبلِ خمسينَ جِيلْ.
فأنتم العارفونْ
وأنتم القاتلُ في ليلِ الأسى والقتيلْ.
وأنتم البائعُ والشَّاري.

* * *

يا إخوة الموت الذي تصنعونْ
لا تسألوني، أيّها العابرونْ
على ضريحٍ دارسٍ منْ قرونْ.
لا تسألوا: مَنْ ذا الذي في الضريحْ؟
لا تسألوني...
بُحَّ صوتي، وأنا في قاعِ قبري أَصيحْ:
هذا أنا، يا إخوةَ الدارِ.
هذا أنا، منْ ألفِ ألفٍ سَلَفَتْ.. أو تَزيدْ،
بينَ أخٍ، وابنِ أخٍ، أو حفيدْ،
أحيا شريداً طريدْ.
أُسْجَنُ، أو أُقْتَلُ، باسمِ العالمِ المأمولِ، غيرِ السعيدْ.
أُدفَنُ حيّاً، في ثرى محمدٍ والمسيحْ.
هذا أنا.. منْ قاعِ قبري أَصيحْ:
واضيعةَ النخوةِ.. واعاري!

* * *

يا إخوةَ الجرحِ القديمِ الجديدْ،
لا تسألوني، أيّها الشّاربون
دَمي نبيذاً، أيها الآكلونْ

---

* ـ هابيل: أحد أبناء آدم، قدّم لله قرباناً من سِمان غنمه.. فقُبل، في حين لم يُقبل قربانُ أخيه قابيل، الأمر الذي أثار غضب قابيل، فقتلَ أخاه، واستحق بعد ذلك لعنةَ الله (تكوين ٤: ١ ـ ٨). وورد ذكر القصة في القرآن الكريم أيضاً (سورة المائدة: ٢٧ ـ ٣١)، وهي تشير إلى أن الله سلّط غراباً، فنبشَ مكانَ دفن جُثّة هابيل، وكشفَ الجريمة.

لحمَ أخيكم، في كهوفِ الجليدْ،
لا تسألوا: مَنْ أكونْ؟
فأنتم الشاهدُ، والشهيد، والنّاعون، والوارثونْ،
أحفادُ قابيلِ الردى والخرابْ.
أبناءُ هذا الخالد المفجوع.. هذا التراب.
أبناءُ عصرِ العذابْ،
عصرِ الأسى والشّجونْ،
والنّفي، والغربةِ، والموتِ بدولارِ.

* * *

يا إخوة الحرْم الذي تعرفونْ
لا تسألوني منْ أنا.. فالغرابْ
ما زال في أعماقكم منْ قرونْ،
ينعق بالموت الذي تجرعونْ،
يحمل ذات النّبإِ الفاجعِ.. ذاتَ الجوابْ.
يا إخوتي في المصابْ،
لا تسألوني، أيّها العابرونْ
على رُفاتي، نحو ما تشتهونْ،
وباسم ما تُخفون، أو تُعلنونْ،
وباسم ما زوّقتمُ منْ كلام،
عن عالم السلم اليهوديّ، وعصر الوئامْ.

* * *

هذا أنا.. باسم دعاة السّلامْ،
منْ بعدِ خمسين عامْ،
كنتُ تحديتُ بها المستحيلْ،
والموتَ، والنّفيَ، وعارَ الرحيلْ.
هذا أنا.. في ليلِ هذا العالم المُستضامْ،
أُصلَبُ شعباً، دونَما جُلجلةٍ، فوق هضاب الجليلْ،
أُقْتَلُ باسم الوئامْ،
تُختَمُ بي أفظعُ مأساةِ جيلْ،
أُدْفَنُ حيّاً، في تراب القدسِ، في غَزَّةَ، في أَريحا،
محمداً مُعاصراً، وواهباً مَسيحا.
هذا أنا... باسم السلام الذَليلْ
يَنْهشُ لحمي الأَهلُ والأَغْرابُ حتى العظامْ،
في زمنٍ وَغْدٍ، رديءٍ، سَفيهْ،
يَشْتَبِهُ الهجينُ في ضوضائه والأصيلْ،
يَشْتَبِهُ الثوارُ، والتُّجّار في وارثيهْ،
يَشْتَبِهُ الكلُّ فيهْ،
يَبيعُني الكلُّ فيهْ،
للغاصبِ الجاني، وَيَسْتَجْدُونَ منْ غاصبيهْ
أَوْسِمَةَ الذل، وعارَ الدَّخيلْ.

* * *

هذا أنا.. في كلِّ عصرٍ وَجيلْ،
أُولَدُ حيّاً، سَرْمدياً، طعينْ.
أَفْضَحُ، باسم الله، جُرْمَ الغدرِ والغادرينْ.
هذا أنا يا إخوتي في العذاب،
أَفضحُ جرمَ الخرابْ،
أَصرخ منذُ البَدْءِ تحتَ الترابْ:
قابيل.. طارَ الغرابْ،
ولمْ يَعُدْ في أَرضنا منْ كاشفٍ أو دَليلْ،
يُحْصِي الضّحايا بَعدَ خمسين جيل.
قابيل... تَمّتْ لعبةُ الموت، وصَفّى الوارثون الحسابْ،
فَلْيَدْفن الأَمواتُ موتاهمْ بلَيلٍ طويلْ،
ولْتَنْتَظِرْ قُربانكَ المستحيل.

* * *

هذا أنا.. يا إخوتي في الحياة
يا إخوتي في الممات
يا إخوتي في الشَّتات.
وإنْ سألتمْ: مَنْ أنا.. مَنْ أكونْ؟
هذا أنا.. هابيلُ كلِّ القرونْ
هابيلُ عصرِ النفط والدولارِ.. عصرِ العبيدْ
هابيلُ عصرِ العار.. عصرِ العربيّ الشريدْ
أُبْعَثُ في نفوسكمْ من جديدْ
محمداً ـ مَسيحا
هذا أنا... أَرْفُضُ دُنيا العبيد
فانتفِضوا، وَمَزّقوا أكفانكمْ، وَزَلْزِلوا الضَّريحا.

بغداد